قضية الإنتحـــــال :

قبل البدء بالحديث عن قضية الإنتحال لابد لنا من التعريف ببعض المصطلحات المستخدمة في قضية الإنتحال ، ومن هذه المصطلحات :
النحل : فالنحل في اصطلاح علماء الشعر أن تعزو قصيدة أو قطعة أو بيتا الى غير قائله ، يقع ذلك منك سهوا أو عمدا . وأما الإنتحال : فهو أن تدعي لنفسك ما ليس لك ، كأن تنسب لنفسك قصيدة أو شعرا هو من قول غيرك ، وانتحل وتنحل بمعنى واحد .
أما الشعر المصنوع أو الموضوع فهو الذي جرى نظمه في الإسلام وعزي الى العصر الذي قبله ، فهو شعر يعكس أجواء ذلك العصر وقيمه ولغته وبيئته ، إلا أنه لم يقله جاهلي ، بل وضعه أو صنعه شاعر إسلامي مقتدر على تزييف الشعر أو بعبارة أخف وطأة مقتدر على التقليد ، كما يفعل اليوم كبار المزيفين في صنع اللوحات أو القطع الأثرية ، لكي تكتسب قيمة مادية من انتمائها الى التراث ، ومثل هذا العمل يستدعي جهدا ومقدرة فنية وإلماما بمذاهب الكلام وإحاطة بمعارف القدماء ومسالكهم المختلفة في هذا الفن حتى يوفق الراوية الى مثل هذا العمل الشاق .
ويمكننا – تيسيرا للدراسة – أن نقسم قضية الإنتحال الى ثلاثة محاور ، يتمثل المحور الأول بموقف العلماء العرب القدماء من قضية الإنتحال ، ويتمثل المحور الثاني بموقف المستشرقين لاسيما موقف مرجليوث من هذه القضية ، أما المحور الثالث فيتمثل بموقف الدارسين العرب المحدثين لاسيما موقف طه حسين من الشعر الجاهلي .

موقف العلماء العرب القدماء :

لقد نهض العلماء العرب في عصر التدوين لجمع الحقائق ورصد الظواهر الشاذة ورفض المنحول والمصنوع والمنحول والمصنوع ، ولو شئنا أن نستشهد بكل ماذكرته المصادر من أمثلة عن تصدي العلماء الأوائل لهذه الظاهرة لجئنا بالكثير الوافر – للإستزادة مراجعة كتاب مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد – لكننا نود أن نشير الى مصدرين قديمين فيها مثل واضح لعملية التنقية التي أجراها العلماء للشعر المنحول أو المصنوع ، أول هذين المصدرين هو كتاب : السيرة النبوية لعبد الملك بن هشام (٢١٨هـ) والثاني كتاب طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) ، وكلاهما قد تصدى لراوية سابق هو محمد بن اسحاق (١٥٤هـ) صاحب السيرة التي أخذ منها ابن هشام سيرته ، فقد جعل ابن هشام وابن سلام ينقدان ابن اسحاق على ما أورد من شعر مصنوع ، وإن كان ابن اسحاق قد إعتذر عن ذلك وقال : ((لاعلم لي بالشعر ، أوتى به فأحمله .)) فرد عليه ابن سلام منتقدا : ((ولم يكن ذلك له عذرا ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشعار النساء فضلا عن الرجال ، ثم جاوز الى عاد وثمود فكتب أشعارا كثيرة ، وليس بشعر ، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ، أفلا يرجع الى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ آلاف السنين ؟ والله تبارك وتعالى يقول : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أي لا بقية لهم ، وقال أيضا : (وإنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى) وقال في عاد : (فهل ترى لهم من باقية) ، وهكذا يستمر ابن سلام في تعقب الشعر المفتعل فيصفيه تصفية تامة . وفعل مثله الجاحظ في عدة مواضع من كتبه ، أذ أنكر صحة بعض الأشعار ، فقال مثلا في شعر للنابغة الذبياني :

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

((بأن هذا الكلام لا وجه له ، وانما ذلك كقولهم كان داود لا يخون ، وكان موسى لا يخون)) وجعله الجاحظ مصنوعا ، ولعله قصد أنه مصنوع في الإسلام لأنه يناسب الآية الكريمة : (إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ، إني لكم رسول أمين) – الشعراء /١٠٥- ١٠٧ – فكلمة ((أمين)) التي في الآية صارت (لا يخون) ، في الشعر المذكور . هذا وقد عزا ابن سلام قضية الإنتحال الى سببين : الأول : العصبية القبلية (وإن كانت العصبيات الدينية والعلمية (كوفية وبصرية) والسياسية والعائلية قد فعلت فعلها أيضا في تفشي الشعر المصنوع والمنحول ، غير أن ابن سلام لم يذكر سوى العصبية القبلية) ، والثاني : رواة الشعر وجهلهم أو براعتهم في التقليد والتزييف وجشعهم في الحصول على الجوائز ، وضرب مثلا بابن اسحاق في جهله للشعر وحماد في براعته في تزييفه .

موقف المستشرقين :

لقد لفتت قضية الإنتحال أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين ، ولعل أول من نظر فيها المستشرق الألماني (نولدكه) سنة ١٨٦٤ م ، وبعد ثماني سنوات تناول الموضوع المستشرق (آهلوارد) في مقدمته لدواوين الشعراء الستة الجاهليين ، فأعاد ما ذكره الأول من الشكوك التي تحوم حول صحة الشعر الجاهلي ، وتابع هذين المستشرقين في آرائهما مستشرقون آخرون طوال ثلاثين سنة هم موير وباسيه وبروكلمان وليال وهوار ، على أن هؤلاء جميعا لم يبلغوا في قضية الإنتحال من الشك والإسراف ما بلغه المستشرق الإنكليزي مرجليوث ، في مقالة له بمجلة الجمعية الملكية الآسيوية بعنوان (أصول الشعر العربي) سنة ١٩٢٥ م ، فقد سلك فيها طريقا غير قويم ، إذ وجه القضية من وجهتها التراثية التي تعرض لها علماء العرب وتابعهم فيها بعض المستشرقين ، الى وجهة الشك والطعن والتخريب ، وقد تجاوز مرجليوث حدود شكه فيما ذكره القدماء الى الشك حتى بالشعر الذي أورده الثقاة أيضا بل كل ما نسميه شعرا جاهليا ، ليقول أن تراث العرب يبدأ بالإسلام ، وتنحصر نظريته في نوعين من الأدلة :

الأدلة الخارجية :

١- إن الشعر الجاهلي كان غامضا مبهما يتعلق بالغيب : لقد أقرمرجليوث أولا بوجود الشعر الجاهلي قبل الإسلام لأن القرآن أشار اليه وفيه سورة باسم الشعراء ، ويقول أن خصوم النبي وصفوه بأنه كان شاعرا مجنونا ، وتأتي في القرآن ثلاثة ألفاظ هي : كاهن ومجنون وشاعر ، وإن هذه الألفاظ مترادفة بمعنى واحد ، وإن من عادة الشعراء آنئذ التنبؤ بالغيب ... وإن الشعر كان غامضا مبهما ، ويقول : ((ربما كان ما تتيح لنا الشواهد القرآنية قوله هو أنه كان قبل الإسلام بعض الكهان من بين العرب يعرفون باسم (الشعراء) كانت لغتهم غامضة مبهمة كما هو الشأن في الوحي ..)) .
٢- أولية الشعر الجاهلي : لقد نعى مرجليوث على الشعر الجاهلي أوليته ، وإنها مسألة غامضة ، وآراء القدامى فيها متباينة ، فقد عزا بعضهم شعرا الى آدم والى عهد إسماعيل ، ولكن الرأي السائد أن الشعر بدأ قبيل الإسلام بأجيال قليلة ، والذين يرون هذا الرأي يجعلون مهلهلا أو إمرأ القيس أول الشعراء ومع ذلك فقد أوردوا شعرا لشعراء سبقوهما بزمن طويل .
٣- الطعن في صدق الرواية الشفوية والمدونة معا : يتحدث مرجليوث عن حفظ هذا الشعر فيقول : ((لو فرضنا أن هذا الشعر حقيقي ، فكيف حفظ ؟ لابد أنه حفظ إما بالرواية الشفوية وإما بالكتابة . ويبدو أن الرأي الأول (أي الرواية الشفهية) هو الرأي الذي يذهب اليه المؤلفون العرب ، مع أنه ليس بالرأي الذي يجمعون عليه كما سنرى)) ثم يشك في أن يكون الشعر الجاهلي قد حفظ بالرواية الشفهية ، ويبني شكه على ثلاثة أسباب ، الأول : ((إذا كانت قصائد عدة ذات أبيات كثيرة قد حفظت بالرواية الشفهية فلا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا وجد أفراد عملهم أن يحفظوها في ذاكرتهم وينقلوها الى غيرهم ، وليس لدينا ما يدعونا الى الظن بأن حرفة مثل هذه قد وجدت أو أنها قد بقيت خلال العقود الأولى من الإسلام !)) ، والثاني : ما يذهب اليه المسلمون من أن ((الإسلام يجب ما قبله)) وما ورد في القرآن من ((أن أتباع الشعراء هم الغاوون فحديث القرآن فيه قسوة عليهم واحتقار لهم . فثمة إذن سبب قوي الى نسيان الشعر الجاهلي – إذا كان ثمة شعر جاهلي حقيقة !)) ، والثالث مرتبط بالثاني وهو ((أن الأعمال التي تخلدها عادة هذه القصائد كانت انتصارات القبائل بعضها على بعض ، والسلام الذي كان يرمي الى توحيد العرب ونجح نجاحا كبيرا في تحقيق تلك الوحدة ، كان يحث على نسيان تلك الحوادث ، والقصائد من هذا الضرب تثير النفوس وتهيج الدماء .)) وإذا كان الشعر الجاهلي لم ينقل بالرواية الشفهية ، فلم يبق إلا طريق الكتابة ، وبعد يقر بوجود الكتابة ينفي أن يكون الشعر قد نقل بطريق الكتابة ، وذلك أن القرآن ينفي أن يكون للجاهليين كتابا يقرؤونه ، وإن الأدب يتطور من الصور الشاذة غير المألوفة الى الصور المألوفة المنتظمة ، وإن الشعر الذي وصل ويزعم أنه جاهلي إنما هو مرحلة تالية للقرآن لا سابقة عليه ، لأن الأساليب الأدبية سواء النثر المسجوع والشعر فيها مشابه من أسلوب القرآن ، وفي القرآن نثر مسجوع وفيه أيضا أمثلة على كثير من الأوزان الشعرية ، والتطور من الأسلوب القرآني الى الأسلوب المنتظم يبدو متمشيا مع المألوف .

الأدلة الداخلية :

١- إن هذا الشعر الجاهلي فيه إشارات الى قصص ديني ورد في القرآن ، وفيه كلمات إسلامية مثل : الحياة الدنيا ويوم القيامة والحساب وبعض صفات الله ، ولا نجد في الشعر جو الآلهة المتعددة الذي نجده في النقوش ... وبالرغم من أن الشعراء الجاهليين يقسمون كثيرا ، فهم لا يكادون يختلفون في قسمهم بالله وهو قسم شائع حقا في دواوينهم ، ويستنتج بعد ذلك : ((إن الديانة الوحيدة التي يصح أن يعتنقها هؤلاء الشعراء الجاهليون هي الإسلام)) .

٢- اللغة ، ومدار حديثه في هذا الدليل على أمرين : الاختلاف بين لهجات القبائل المتعددة ، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية جملة واللغة الحميرية في الجنوب ، وهو يذكر أن هذا الاختلاف واضح فيما أكتشف من نقوش في شمال شبه الجزيرة وفي جنوبها ، غير أن هذا الشعر الجاهلي كله كما يشير مرجليوث جاءنا بلغة القرآن ، بالرغم من استخدام كلمة أو صيغة في مواطن متفرقة من هذا الشعر يقال عنها إنها لهجة قبيلة بذاتها أو لهجة إقليم ، ولو أننا افترضنا أن أثر الإسلام في قبائل بلاد العرب وحد لغتهم .. فإنه من الصعب أن نتصور أنه كانت ثمة لغة مشتركة تختلف عن لغات النقوش منتشرة في أنحاء شبه الجزيرة كلها قبل أن يهيئ الإسلام هذا العنصر الموحد .

٣- وأما الدليل الثالث من الأدلة الداخلية فقائم في موضوعات القصائد نفسها ، وحديثه عن هذه النقطة يلفه الغموض والإبهام ، ولعله يريد أن يستنتج منه أن اتفاق القصائد الجاهلية في التطرق الى موضوعات واحدة بعينها تتكرر في كل قصيدة أمر يدل على أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله .

موقف الباحثين العرب المحدثين :

يعد مصطفى صادق الرافعي أول من شق طريق البحث في هذا الموضوع متطرقا الى البواعث على وضع الشعر في الإسلام ، فردها الى عصبية القبائل والتماس الشواهد النحوية والفقهية والدينية والفلسفية والأخبارية والتأريخية ، ثم الإتساع في الرواية . فكان الرافعي معقولا في عرضه للقضية وإنه لم يتجاوز حدود الأوائل . ثم تناول الموضوع د. طه حسين فألف فيه كتابه (في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦م فأثار ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية والثقافية لما فيه من آراء جريئة يتعرض في بعضها للدين ، ثم حذف منه وزاد فيه ووسعه فأصدره سنة ١٩٢٧م بعنوان (في الأدب الجاهلي) ، وقد أخذ طه حسين أكثر مادته من روايات ابن سلام وآراء مرجليوث واستنتاجاته ، وتوسع فيها وعمم الأحكام الفردية واتخذ الأمور الخاصة قواعد عامة ، حتى إنتهى الى ما إنتهى اليه من ((أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبا جاهليا ليست من الجاهلية في شيئ ، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين)) .

وحديث طه حسين في كتابه عن هذه القضية ينقسم الى ثلاثة أقسام : عرض في القسم الأول الدوافع التي دفعته الى الشك في هذا الشعر ، وتناول في القسم الثاني الأسباب التي يرى أنها أدت الى نحل الشعر ووضعه ، أما القسم الثالث فإنه خصصه للحديث عن شعراء بذاتهم .

دوافع الشك في الشعر الجاهلي :

١- **أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين :** فبالنسبة للحياة الدينية يرى طه حسين أن ((هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس

والمسيطرة على الحياة العملية . أما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو أهلها الى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال . ثم يجد في هذا الجدال الديني ما يجعله ينتقل الى الحياة العقلية والحضارية ، فيقول : ((أفتظن قوما يجادلون في هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة بحيث يمثلهم هذا الشعر الذي يضاف الى الجاهليين ؟ كلا ! لم يكونوا جهالا ولا أغبياء ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية ، وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء ، وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة ...)) .

أما الحياة السياسية فيرى أن العرب كانوا على اتصال قوي بمن حولهم من الأمم ، وإن القرآن يحدثنا عن الروم وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب الى حزبين مختلفين : حزب يشايع أولئك وحزب يناصر هؤلاء ، وإن في القرآن سورة تسمى سورة الروم ، في حين أن الشعر الجاهلي يصور لنا العرب معتزلين . وما يتعلق بالحياة الاقتصادية يرى طه حسين إن الأدب الجاهلي لا ينطوي على شيء ذي غناء يمثل لنا حياة العرب الاقتصادية ، في حين أن القرآن فيه إشارات الى الحياة الاقتصادية لدى عرب الجاهلية ، إذ أنه يقسم العرب الى فريقين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة المسرفين في الربا ، وفريق الفقراء المعدمين ، وقد وقف الإسلام في صراحة وحزم وقوة الى جانب هؤلاء المستضعفين وناضل عنهم وذاد خصومهم والمسرفين في ظلمهم .

٢- **الاختلاف في اللغة والاختلاف في اللهجات :** إن هذا الشعر بعيد كل البعد عن أن يمثل اللغة العربية في العصر الجاهلي ، لأن هناك خلافا قويا بين لغة حمير ولغة عدنان ، وإن القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية تختلف من حيث اللهجة ، مع أن الشعر الذي وصلنا جاء بلهجة واحدة .

٣- **الاستشهاد بالشعر الجاهلي على ألفاظ القرآن والحديث :** إن العلماء العرب القدماء اتخذوا من هذا الشعر مادة للاستشهاد على ألفاظ القرآن والحديث ، مع أن الشعر لم يصل مدونا بل عن طريق الرواية الشفهية .

أسباب الانتحال :

١- **السياسة :** ويريد بها العصبية القبلية مثل ما كان بين قريش والأنصار من عداء ، وما كان بي القبائل من أحقاد قديمة ومع ذلك لم يستشهد بشعر جاهلي بل استشهد بشعر إسلامي قيل بعد الإسلام.

٢- **الدين :** وتطرق الى الشعر الذي قيل قبل البعثة تبشيرا بالنبي أو ما جاء عند المفسرين من ذكر الأمم السابقة ، وإن الديانة اليهودية والديانة المسيحية لم يظهر لهما أثر في الشعر الجاهلي .

٣- **القصص :** وتحدث عن القصص وما كان يضعه القصاصون أيام بني أمية وبني العباس من الشعر لتزيين قصصهم وأخبارهم من جهة ، ولإحداث التأثير في نفوس السامعين من جهة أخرى .

٤- **الشعوبية :** وتحدث عن الخصومة بين العرب والموالي ، وإن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخبارا وأشعارا وأضافوها الى الجاهليين والإسلاميين للغض منهم والحط من منزلتهم ، وكذلك فعل خصومهم من العرب ، ولكنه لم يقدم شاهدا واحدا على ذلك .

٥- **الرواة :** وتحدث عن فساد مروءة بعض الرواة الماجنين العابثين الذين عبثوا بالأدب العربي مثل حماد الراوية وخلف الأحمر وأبي عمرو الشيباني ، وإنهم قد أحاطت بهم ظروف مختلفة تحملهم على الكذب والنحل ككسب المال والتقرب الى الأشراف والأمراء والظهور على الخصوم والمنافسين ، ونكاية العرب . كما تحدث عن طائفة أخرى من الرواة الذين يتخذون النحل في الشعر واللغة وسيلة من وسائل الكسب ، وكانوا يفعلون ذلك في شيء من السخرية والعبث وهم الأعراب الذين كان يرتحل اليهم في البادية رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب .